من بلاغة الخطاب إلى تداولية البلاغة – دراسة إبستيمولوجية –

From Discourse's Rhetoric to Rhetoric's Pragmatics: An Epistemological Study

إسماعيل حبشي *
جامعة 20 أوت سكيكدة 1955، (الجزائر)
i.habchi@univ-skikda.dz

د. زهير بوخيار
جامعة 20 أوت سكيكدة 1955، (الجزائر)
z.boukhair@univ-skikda.dz

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي

تاريخ الارسال: 2022/09/07	تاريخ التقييم: 2023/05/26	تاريخ القبول: 2023/06/23

الملخص

تُعتبر التداولية ثمرة لانفتاح النسق اللساني على مؤشرات بناء السياق ومكوناته انطلاقا من أبعاد اللغة التواصلية، بل انفتحت على علوم ومعارف أخرى فتُعتبر علما عبر لساني، ولأهمية هذه النظرية الغربية حاول الكثير التأصيل لها في المنجز المعرفي العربي من نحو وفلسفة وأصول ... وأخذت البلاغة حيزا مهما في هذا التأصيل. وساير هذا الانفتاح تطوير مفهوم الخطاب تجاوزا لمفهوم النص الذي ارتبط بالنسق اللساني المغلق. وسنحاول في هذه الدراسة أن نبرز المنطلقات البلاغية في دراسة الخطاب انطلاقا من بلاغة الخطاب عموما والخطاب القرآني خصوصا. وكيفية بناء المفاهيم البيانية التي أسهمت في تأسيس الدرس البلاغي وفق تداخل عدة جوانب معرفية وفي المقابل دراسة التداولية للبلاغة العربية لتأصيل منجزاتها أو البحث في آلياتها الإجرائية، وكذلك تهدف هذه الدراسة الإبستيمولوجية تحديد التقاطعات المعرفية انطلاقا من موضوعهما، ظنا منا إن الدراسة وفق هذين المحورين: الدراسات التأسيسية والدراسات التأصيلية من شأنه أن يثمر نظرية ذات كفاءة تفسيرية وإجرائية. مع الحفاظ على هوية كل علم.

كلمات مفتاحية: البلاغة؛ التداولية؛ الخطاب؛ إبستيمولوجية؛ التأسيس؛ التأصيل.

Abstract

Pragmatics is the result of the opening of the linguistic pattern to the indicators of dimensions of the language. It has even opened up to other sciences and several domains knowledge and is considered a paralinguistic science. Due to the importance of this Western theory, a lot of scholars have tried to establish rules for

it in the Arab cognitive achievement be it in grammar, philosophy or ..... Rhetoric has taken a wide range of these studies. In this study, we will try to highlight the rhetorical premises in the study of discourse from the Discourse's rhetoric in general and Quranic discourse in particular and how to build the rhetorical concepts that contributed to the establishment of the Arab rhetorical curriculum according to the overlap of several cognitive aspects. In the other hand, the study of rhetorical pragmatics in order to establish its achievements or to tackle its procedural mechanisms. In addition, this epistemological study aims at defining the cognitive junctions starting from their subject. We were hoping that the study is based on these two themes: Foundational and authenticating studies would result in a theory of interpretative and procedural efficiency while preserving the distinctiveness of each science.

Keywords: rhetoric ; pragmatics ; discourse ; epistemology ; founding ; rooting.

* المؤلف المراسل

1.مقدمة:

ارتبطت جلّ أو معظم العلوم العربية من نحو وفقه وفلسفة وغيرها بظهور الإسلام، فالقرآن الكريم يعد الحافز الأكبر لظهور هذه العلوم عند العرب، ولأن العربية لغة القرآن الكريم، عكف العلماء على دراستها وسن لها قواعد وهذا ما تمخض عنه علمي الصرف والنحو كما ظهر التفسير، وقبل هذا ظهور المعاجم انطلاقا من البحث في غريب القرآن، فالأصل الأول لظهور هذه العلوم هو الغرض التعليمي لتعلم وفهم القرآن الكريم، وما إن تطورت الحضارة الإسلامية حتى أصبح لهذه الحركة التعليمية أبعادا علمية تجاوزت الأغراض الدينية الغائية. فأفرزت الملاحظات التعليمية في النحو والتفسير مباحث علمية أسهمت في نشأة علم البلاغة. إن هذه الدراسة تجعلنا نمد جسور التواصل مع تراثنا البلاغي بصفة خاصة وعلوم اللسان عامة والتداولية بشكل خاص، وهذا التحاور مع التراث المعرفي يجعله أكثر دينامية وتفاعل مع المنجز اللساني الحديث لأننا نستمد آليات فعالة من شأنها أن تعيد البريق للتراث من خلال إعادة قراءته لإزاحة عنه اللثام و استثماره بصفة ناجحة وفاعلة، فنشأة البلاغة العربية، ارتبطت بدراسة الإعجاز القرآني، لفهم نظمه ووصف بلاغته ثم بالنحو ولطائف

معانيه، وخصائص تراكيبه وفي إعجازه يقول الخطابي:" اعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني".[1] وعلم البلاغة ما جاء إلا لفهم بلاغة الخطاب القرآني إعجازه؛ وتفسير نظمه لهذا حاولنا أن ننطلق من الخطاب وحَدِه، لتبيين المفاهيم البلاغية المرتبطة به، وكذلك علاقته بالتداولية لرصد العلاقة بين العلمين وتقاطعهما بتفعيل المنطلقات، أي موضوعهما وهذا لأن اغلب الدراسات التأصيلية هي دراسات إسقاطية تتجاوز دراسة المنطلقات التأسيسية متجاهلة حدّ كل علم وموضوعه ومنهجه وأهدافه، وهذا ما قد يجعلنا نَسِمُها بأنها قراءات سطحية تجعل المفاهيم البلاغية المباشرة هي موضوع دراستها متناسية الأبعاد الثاوية خلفها. ومحاولين الإجابة عن الإشكالية التالية: ماهي المنطلقات الأساسية لتأصيل النظرية التداولية في البلاغة العربية؟

وللإجابة عن هذا الإشكال والعديد من الأسئلة المنطوية تحته، سنكتفي بالموضوع (الخطاب) لإظهار التقاطعات بين العلمين وسبل تحيين الدرس البلاغي تداوليا لكي يصبح نظرية شاملة في التواصل الإنساني، وإن كان هذا يتطلب تضافر جهود كبيرة، تعيد النظر في الأسس النظرية لوضع مبادئ دقيقة لتأصيل النظريات اللسانية الحديثة في التراث اللغوي، تُجنبها الإسقاطات المباشرة، وهذا من خلال وصف النظريات الحديثة وتحديد منطلقاتها وضبط تصوراتها، والبحث في مرجعياتها ثم بالطريقة نفسها مع النظريات والعلوم التراثية.

2. الخطاب:

إن المتتبع تطور الدرس اللساني الغربي يجد أن مصطلح الخطاب كان وليد انفتاح النسق اللساني على منتج ومؤول اللغة بل انفتاح الدرس اللساني عموما على المعارف والعلوم غير اللسانية، تجاوزا لمفهوم النص الذي ارتبط بالمنظور البنيوي والأنساق المغلقة، ولأن هذا المفهوم يمثل موضوع كل من البحث البلاغي والتداولي، يجب علينا ضبط مفهومه لأنه يعطي مبرر وجود التداخل المعرفي وإمكانية التأصيل.

1.2 الخطاب في اللغة:

قال ابن فارس في مادة (خ ط ب): الخَاء والطَّاء والبَاءُ أصلان: أحدهما الكلام بين اثنين، يُقَال خَاطِبُه يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، والْخُطْبَة من ذلك. وفي النِّكَاحِ الطَّلَب أن يزَوَّجَ ...

والخُطْبَةُ: الكلام المخْطُوبُ به. ويُقَال اخْتَطَبَ القَوْم فلانا، إذا دَعَوْه إلى تَزَوُّجِ صَاحِبَتِهِمْ. والخَطْبُ: الأمر يقَعُ: وإِنَّمَا سُمِّيَ بذلك لِمَا يقَع فيه من التَّخَاطُبِ والمُرَاجَعَةِ. وأمّا الأصل الآخر فاختلاف لَوْنَيْنِ.[2] فالخطاب كلام يفترض وجود شخصين، ويحمل دلالة الاختلاف بحسب الأصل الثاني للدلالة المادة وهذا يتوجب وجود مسافة استدلالية تتم عبر الخطاب تتجلى فيها معاني الحوارية والتواصل التداولي. وقال الزبيدي: والخَطْب: الأمر الذي يقع فيه المُخاطبة[3]. أي المشاورة والتحاور وإبداء الرأي وجاء في اللسان:" الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان[4] والخطاب: مصدر خاطبته مخاطبة وخطابا [5]، و" هو توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"[6]، فتبين من التعريفات اللغوية أن الخطاب يرجع إلى توجيه الكلام بقصد الإفهام ولا يكون الكلام خطابا إلا إذا توفر فيه هذا القصد وأن يكون بين طرفين أحدهما المخاطِب والثاني هو المخاطَب وهو خطاب لأن فيه مراجعة في الكلام. وفيه معنى الحوار وتبادل الحديث. والحوار قد يكون افتراضيا فالمتكلم يصوغ خطابه لمتلق حقيقي أو مفترض، فيتصور ويضع افتراضات أثناء إنتاجه للخطاب ترتبط والسامع أو القارئ. والغاية منه الإفهام، وموجه انطلاقا من قصد. ومما سبق قلنا بأن بلاغة الخطاب مرتبطة بإعجاز النص القرآني ومنه نحاول الوقوف على دلالته القرآنية.

1. 2. 2 دلالة الخطاب في القرآن الكريم:

وردت كلمة الخطاب ثلاث مرات في القرآن الكريم قال سبحانه وتعالى:

- (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا) (النبأ:37)
- (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتيناَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) (ص: 20)
- (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) (ص:23).

يقول مجاهد في تفسير الآية الأولى: يقول تعالى ذكره لا يملكون له كلاما حتى يأذن لهم[7]، فالخطاب بمعنى الكلام، ويفسر الزمخشري الآية الثالثة يريد جاءني بالحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أَرُد به، وأراد بالخطاب مخاطبة المحاج المجادل ... وقُرِئ وعازّني من المعازة وهي المغالبة ... إنما يستقيم طريقة التمثيل إذا فسرت الخطاب بالجدال [8]، فالمعنى هنا هي المغالبة بالحجاج فجاءت لفظة الخطاب بمعنى المحاجة والجدال. أما الآية الثانية يقول فيها الزمخشري فمعنى فصل الخطاب، البيّن من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به، لا

يلتبس عليه ومن فصل الخطاب وملخصه ألا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل.. وكذلك مظان العطف وتركه، والإضمار والإظهار والحذف والتكرار[9]، وفي هذا المعنى ضبط الخطاب من اللبس مما يخل من جانب إقامه الحجة فيه من خلال ما ذكره الزمخشري من شروط تقي تعدد المعاني التي تُؤدي إلى الفساد، كما حدد بعض مظاهر الاتساق والانسجام. فللخطاب دلالتان أحدهما عامة وهي الكلام الموجه لمستمع ودلالة خاصة وهي الحوار والمحاجة والجدال. ومنه يمكن تحديد مفهوم الخطاب القرأني:

2. 2. 2 الخطاب القرآني:

هو خطاب إلهي معجز، متفرد عن غيره من الخطابات في كل مستوياته، وأهم ما يميز الخطاب القرآني مرجعيته فالله سبحان وتعالى هو المرسل والخطاب القرآني لا يُنطق إلا بلفظه، حيث لا يجوز لقارئه أن يقرأه إلا بلفظ داله، وإن اختلفوا في لغات المدلول فهو مرسل للناس كافة[10]، فالخطاب القرآني يشتمل على بعدين: الاتصال (التبليغ)، والإبداع المتجلي في الإعجاز.[11]

2. 3 الخطاب في الاصطلاح:

2. 3 .1 عند الأصوليين:

تشابهت تعريفات الخطاب عند الأصوليين إلا أن هناك اختلافا يرتبط بدلالة المفهوم بين من يَحُدُه بأنه كلام أو قول أو لفظ كما سنرى في التعريفات الآتية:

قال العلامة المناوي: "الخطاب هو القول الذي يَفْهم المخاطب منه شيئا[12]، ويقول الآمدي في تعريفه للخطاب بأنه "اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه"[13]. وقد نميز نوعين من الكلام أحدها يرتبط بعرف النحاة: أنَّه الكلام: وهو ما تضمن نسبة إسنادية. والثاني: أنَّه أخص منه، وهو ما وُجِّه من الكلام نحو الغير لإفادته[14]. ومن شروط اعتبار الكلام خطابا وجود متلق يقول القاضي أبو بكر: الكلام لا يوصف بأنه خِطَاب دون وجود مخاطَب[15] يتبين أن الخطاب يرتبط ب الكلام أو القول أو المتلفظ ولأن المقام لا يسعنا في التفريق بينها، لكنها جميعا ترتبط بمعنى الإفادة باعتبار صحة المعنى والمبنى واستواء القصد لتحقق الإفهام. فالخطاب عند الأصوليين هو الكلام الموجه لمستمع بقصد إفهامه والتأثير فيه وهذا المفهوم قريب لمعنى البيان عند الجاحظ إلا أن الأخير عني بالجانب البلاغي. سنخص

بتعريفه في حديثنا عن بلاغة الخطاب. وكان العلماء قديما يصطلحون على الخطاب بأنه الكلام حيث يقول ابن خلدون:" اعلم أن الكلام الذي هو العبارة والخطاب ...إنما سره وروحه في إفادة المعنى ... وكمال الإفادة هو البلاغة"[16] فالبلاغة عبارة عن خطاب تواصلي في رتبة عالية من مراتب الإفصاح والإبانة، يهدف إلى التأثير في المتلقي.

2 .3. 2 عند اللسانيين:

يعد مفهوم الخطاب من القضايا المشكلة في الدرس اللساني ذلك لحداثة المفهوم وتنوع مرجعياته إذ يتخذ تسنينه الاصطلاحي تبعا للحقل الذي ينتمي إليه، فهناك الخطاب الأدبي والاجتماعي والفكري والإعلامي والديني.[17] غير إن ما يؤسس لمفهوم الخطاب العلوم التي تعمل على إنشائه، ووضع مبادئه وإجراءاته ولعل أهم الدراسات المشتركة بين العلوم المختلفة المتصلة بالخطاب، هي الدراسات النفسية اللغوية والاجتماعية اللغوية هي تجري لوضع الأسس التجريبية والنظرية لتحليل الخطاب، وتتصل بتحديد طبيعة العمليات المعرفية المستخدمة في إنتاج الخطاب وفهمه وتخزينه وإعادة إنتاجه بالإضافة إلى القواعد المعرفية العامة، وتستقي كلمة الخطاب موضوعيتها من المادة التي تعالجها والسياق الاجتماعي الذي ولدت فيه[18]، فالخطاب: هو تسلسل وحدات لسانية صرف، انطلاقا من الفونيم بوصفه أصغر وحدة صوتية مسلوبة المعنى إلى الجملة باعتبارها مقطعا مكتفيا بذاته مستفيدا بالاستقلالية السانتكسية[19]، وهذا التعريف لساني محض لا يلتفت إلى المكونات الخارجية وهذا ينطبق ومفهوم النص بالنسبة للذين لا يفرقون بين المصطلحين فالخطاب يعتبر نص مضاف إليه السياق، ويعرفه كل من ليتش (litche) وزميله شورت (short) بأنه تواصل لساني ينظر إليه بوصفه إجراء بين المتكلم والمخاطَب أي فعالية تواصلية يتحدد شكلها بواسطة غاية اجتماعية.[20] ويعرف بنفنست الخطاب بقوله:" كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما[21]، وليس بعيدا من هذا التعريف، تعريف طه عبد الرحمن بقوله:" حد الخطاب أنه كل منطوق به موجه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا".[22] والتعريفان مقاربان للتعريف الأصولي للخطاب. ومما سبق فإن حد الخطاب يرتبط بالمرسل الذي يُلقي الخطاب بقصد التأثير، والمتلقي الذي يعمل على فهم الخطاب وتأوليه وهما يتشاركان في إنتاج النسق اللغوي وفهمه. فحد الخطاب عموما باختلاف مرجعياته يعتبر رسالة تواصلية من مرسل إلى متلق، يرتبط بقصدية الأول ويهدف للتأثير في

الثاني، فالملاحظ في جل التعريفات اللغوية أو الاصطلاحية أنها تركز في ضبط مفهومه على أبعاد سياقية وعلاقات تداولية تفاعلية، لأنها الأصل في بنائه وتكوينه، وما الأبنية الداخلية من تراكيب لغوية وما تحيل إليه من دلالات لغوية إلا تحصيل حاصل. جاءت انطلاقا من علاقات خطابية واستدلالية، فالاتساق الخطابي ما هو إلا انعكاس للانسجام التداولي. ولأن البلاغة ما جاءت إلا لتفسير تجليات صورة هذا الانعكاس وما وقع للأبنية و الدلالات من عدول وانزياحات ،باعتبار القصد والإفهام ويمكن أن نوضح هذا في المخطط التالي:

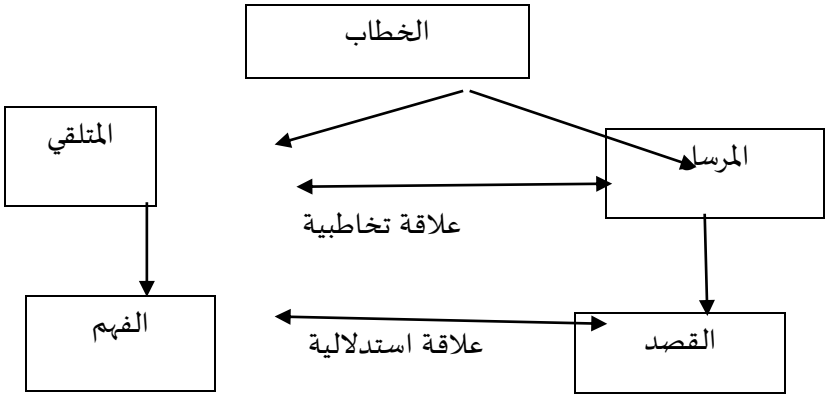

ومجمل القول إن أركان بناء الخطاب وتحققه هي أربع: المرسل، المتلقي، القصد، الإفهام، تقوم فيما بينها علاقات تقابل وتواز

العلاقات التخاطبية: لا يمكننا أن نطلق على كلام بأنه خطاب إذا لم يكن موجه لمخاطَب، ويرتبط الخطاب بالإفادة من خلال صحة بنيته التركيبية والدلالية.

العلاقات الاستدلالية: تأتي في مرتبة ثانية لأنها تربط بين بنية الخطاب وقصدية المتكلم، وأثرهما على المتلقي. ترتبط بالاستلزامات المودعة ومتضمنات القول، وهي ضرورية لتطابق القصد مع الفهم لحصول الغاية من الخطاب وهو التبليغ والإفادة. فالمرسل يقوم بإنتاج معنى قصدي، في شكل مرسلة لغوية بمجرد دخوله مع المتلقي في علاقة تخاطبية، وهذا الأخير يقوم يحاول فك شفرة العبارة اللغوية للوصول إلى القصد.

3 . بلاغة الخطاب:

ارتبطت نظرية البلاغة العربية بالنظم والإعجاز القرآني، فلقد جمع الإعجاز بين التأثير الفني والجمالي القائم على التصوير والتخييل وبين الإقناع القائم على المحاجة والاستدلال ولعل هذه الخصيصة الثانية ترتبط بالخطاب في حد ذاته، حيث يقول طه عبد الرحمن: "حقيقة الخطاب ليست هي مجرد الدخول في علاقة مع الغير وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض، بمعنى أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو العلاقة الاستدلالية وليس العلاقة التخاطبية وحدها، فلا خطاب بغير حجاج ولا مخاطَب من غير أن تكون له وظيفة المعترض ... فإذا ثبت أن الحجاج هو الأصل في الخطاب و ثبت أيضا أن العلاقة استدلالية أصلية يتفرع عليها سواها ولا تتفرع على سواها وإذا تضمن الخطاب علاقة تخاطبية، فيجب حينئذ ردها إلى العلاقة الاستدلالية"[23]، وفي الحقيقة أن العلاقة التخاطبية هي التي تسبق العلاقة الاستدلالية؛ لأنه لا يتحقق المعنى التواصلي في الخطاب إلا بوجود أطراف الرسالة التواصلية، وما العلاقات الاستدلالية إلا وليدة السياق فالاستدلالات الذهنية تتحقق بعد وجود المتلقي الحقيقي أو المفترض.

فمدار نشأة الدرس البلاغي حول سر إعجاز القرآن المرتبط بنظمه وفهم دلالاته واستنطاق مكنوناته البيانية وطاقاته الحجاجية والإقناعية حتى وصف بالسحر بعد أن عجز بلغاء العرب وأرباب البيان على الإتيان بمثله بالرغم ما هم فيه من جحود وتنكر له، ولا أدل على هذا ما وثقه الخطاب القرآني نفسه في سورة المدثر عن الوليد بن المغيرة مثال من أمثلة أرباب الكفر و التعنت لمّا سمع القرآن العظيم مخاطبا الملأ من قريش "والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا كلام الجن إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى "ولما قالت قريش عندئذ صبأ و الله الوليد، احتالوا عليه ليطعن في القرآن الكريم لم يجد حيلة إلا أن يقول (إن هذا إلا سحر يؤثر)[24]. وفي ذلك يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۞) (المدثر 18: 24)، و هذا إقرار من خبير باللغة وعالم بأفانين العرب في كلامها، لما سمع من قرآن ما تميل له القلوب ويعصف بالعواطف ويهز النفوس بقوة حجته وحسن سبك أدلته، واكتمال منطقه وتراصف حججه، واعتراف بأنه في درجة عالية من البلاغة ومرتبة عظيمة في حسن البيان. ولأن البلاغة العربية جاءت لوصف وفهم وتأويل خطاب بليغ متمثل في النص القرآني، ومنه

توسعت لجميع الخطابات سواء كانت نثرا أو شعرا محاولة للإجابة عن الأسئلة الآتية: متى نطلق على خطاب أنه خطاب بليغ؟ وكيف يتم إنتاج خطابا بليغا؟، لابد أنه يجب من التفريق بين البلاغة بوصفها علما لغويا له أصوله وضوابطه، وبين البلاغة بوصفها فنا قوليا يرتبط بالفطرة ومرتبطة باستعمال الخطاب، أو اكتسبها بالتعليم والدربة، بينما يفتقر إليها البعض الآخر. وهكذا يمكن أن نميز من خلاله بلاغة بمعناها التقني أي تحرير الخطاب ومفهوما نظريا بمعنى تجريد قواعد وقوانين واصفة للخطاب تشكل معايير لاكتساب هذه الصناعة. وقد تعددت تعريفات بلاغة الخطاب ولعل أبرزها:

- أن يعبر عن المعنى المطلوب بعبارة يسهل بها حصوله في النفس متمكنا من الغرض المقصود.[25]
- " كون الكلام الفصيح موصلا للمتكلم إلى أقصى مراده "[26]
- أما الحسن ابن وهب فيعرفها بأنها القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام، وفصاحة اللسان."[27]
- بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته والحال يسمى بالمقام هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد عبارته على صورة مخصوصة، والمقتضى يسمى الاعتبار المناسب: هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة "[28]

إن هذه التعريفات لبلاغة الكلام" الخطاب" تركز على الجوانب التواصلية في إنتاج الخطاب البلاغي، بدءا بالمنتج وقصديته ثم العبارة وما يرتبط بها من إصابة المعنى القصدي وصحة المبنى وصولا إلى المتلقي والأثر الواقع عليه. ولأن هذه الجوانب مرتبطة في جوهر الخطاب يعني أن البلاغة هي نظرية في الخطاب من حيث هو استعمال للغة، في مقابل النحو الذي يعتبر نظرية في اللغة.

وارتبط مفهوم البلاغة العربية في كتب البلاغيين المتقدمين والمتأخرين بكل ما هو:

- متعلق باللفظ من حيث الفصاحة والغرابة والحوشية والجزالة .
- أو ما يتعلق بالمعنى من حيث الحقيقة والمجاز.

- أو بما تعلق بهما من حيث النظم والتأليف ومعرفة خواص تركيب الكلام ، وغاية ذلك كله هو البحث عما تتحقق به الإفادة بين المتخاطبين.[29]

ويمكن حصر حسن البيان وبلاغة الخطاب في :

- ما يقصد إليه المتكلم من معان يقتضيها المقام، زائدة عن أصل المعنى.
- ما يقع من التصرف في المعاني بإيرادها في طرق تختلف بالوضوح والخفاء.
- ما يعرض للكلام من وجوه تكسوه حسنا وتزيده في نفس السامع وقعا.[30]

فالبحث البلاغي يركز على قصدية منتج الخطاب و المعاني الثواني أي الدلالات الفرعية أو ما يعرف في الدرس التداولي بالاستلزام التخاطبي، والدلالات المضافة وترتبط بالموقف التواصلي فهي دلالات استعمالية أنتجها التفاعل مع السياق. وتدرج فيها كل من التشبيهات والاستعارات والمجاز، أما البلاغة بمعناها الصناعي: تمثل منهجا للفهم النصي مرجحة التأثير وعندما نفكر حسب المفاهيم البلاغية، فإننا ننظر مبدئيا إلى النص من زاوية المستمع (القارئ) ونجعله تابعا لمقصدية الأثر.[31] فهي مجموعة القواعد والقوانين التي وضعها العلماء مستنبطة من استقراء الخطاب البلاغي. وهي قوانين كلية مجردة من خلال المواد الجزئية.

4. تداولية الخطاب:

التداولية هي ذلك الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية الذي يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام،[32] أي تبحث في خصوصيات الأداء اللغوي باعتباره نسقا يخضع لظروف الإنتاج، وما يتحقق من أعمال لغوية جزئية ترتبط بالوظيفة العامة للخطاب وهي التواصل. وقد كانت التداولية في بداية الأمر إحدى الفروع الثلاثة المكونة للسيميولوجيا وهي العلامات والرموز، ودلالاتها وعمليات توصيلها فكانت التداولية تعنى بهذا القسم الأخير، إلى جانب النحو الذي يقوم بتحليل العلاقات بين العلامات وعلم الدلالة الذي يحلل صلة العلامات بالمدلولات والواقع ولهذا فإن التداولية اهتمت أولا بوصف العلاقة بين العلامات ومن يستخدمونها[33]، فالتداولية هي عقد يربط بين العبارة اللغوية والمستعمل لها وفي هذا يتجلى السياق الافتراضي أي دراسة دور السياق في بناء وإنتاج المعنى

فإن التداولية هي العلم الذي تعنى بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي للعلاقة بين النص والسياق[34]، وهذا من خلال رصد

الجوانب الوظيفية للفعل الكلامي وأبعاده المتحققة التي ترتبط بقصدية المرسل، وأثرها على المتلقي. وبما أنها تهتم بدراسة النص وعناصر الموقف التواصلي أي سياق النص فهي تعنى بالخطاب الذي يعتبر الاستعمال الحقيقي للغة في التواصل الطبيعي وهذا يحيلنا إلى مفهوم التداولية العام والشائع أي دراسة اللغة أثناء الاستعمال.

5. تداولية البلاغة:

العلاقة بين التداولية والبلاغة: جاء في قاموس التداولية أن البواعث الرئيسة للتداولية يمكن إرجاعه إلى البلاغة القديمة مع مدد استمرار وكذلك انقطاعات مميزة في تاريخ الأفكار.[35] فهي وريث للدرس البلاغي القديم تغطي جانبا من أبحاثه وتتقاطع معه في بعض أدواته، وإذا ما رجعنا إلى تعريف صلاح فضل السابق للتداولية يعلق عليه رابطا إياه بالدرس البلاغي القديم بقوله:" ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال) وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)".[36] وهذا يتقاطع مع قول ليتش leech" إذ يرى أن البلاغة تداولية في صميمها إذ أنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان مشكلات اتصالهما باستخدام وسائل محددة للتأثير، غير أن دارسي التداولية يرون ضرورة تضييق مجال البلاغة باعتبارها أداة ذرائعية، فالتداولية إذن قاسم مشترك بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية"[37]، وفي الحقيقة إن البلاغة العربية في جوهرها هي بلاغة عامة وليس كما يعتقد البعض أنها ترتبط بفن القول أي الجانب الجمالي بل تتعداه لجميع أنواع الخطابات، ولا سيما ما نجده عند الجاحظ والجرجاني في نظرية النظم، هذا لأن النص القرآني تتعدد فيه الخطابات ومواضيعها فمنها التاريخية والاجتماعية والسياسية و... لكنها كلها تتسم بصفة البلاغة والبيان، وترتبط بالتواصل وسبل نجاحه ونجاعته ولنا في نظرية النظم خير دليل على أن البلاغة العربية تقوم في جوهرها على التكامل المعرفي بين علم النحو والدلالة فهي نظرية كاملة، وكذلك نظرة السكاكي التكاملية للبلاغة لأنه جعلها ثمرة ترتبط بالنحو والصرف وعلم الاستدلال وهذه النظرة الكلية والشمولية تجعلنا نعيد النظر في تفعيل جوهر البلاغة العربية لأنها تعد نظرية كلية وشمولية في التواصل. وتخليصها من سوء الفهم الذي لحق تصوراتها العامة بسبب تلخيص المفتاح وشروحه. وإذا ما تأملنا

صناعة الخطاب البلاغي عند أبي هلال العسكري في كتابيه الصناعيتين أنه يولي الجانب الاستعمالي أهمية قصوى في الربط بين المعنى والمبنى، حيث يقول:" فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال"[38] فالملاحظ أنه يبدأ بالجانب الدلالي وإقامة المعنى في الذهن بما يرتبط بالواقع، وإصابة المعنى لا يرتبط بالمعاني المفردة فحسب بل يقصد به المعاني المركبة وتصحيح الألفاظ يرتبط سلامة تركيبها النحوي، ثم يورد وجوه صحة المعاني من خلال ما جاء به سيبويه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب.[39] أما تصحيح اللفظ يرتبط بمراعاة قواعد النحو، ومن خلال المحورين يتحقق الكلام الذي تكمن فيه شرط الإفادة، أما إذا أردنا تحقق صفة البلاغة فيه يجب مراعاة الاستعمال الفعلي، وهو يرتبط بمناسبة بين صحة المعنى وصحيح اللفظ من جهة وشروط المقام ومقتضياته من جهة ثانية

ويمكن تمثيل هذا بالرسم التالي:

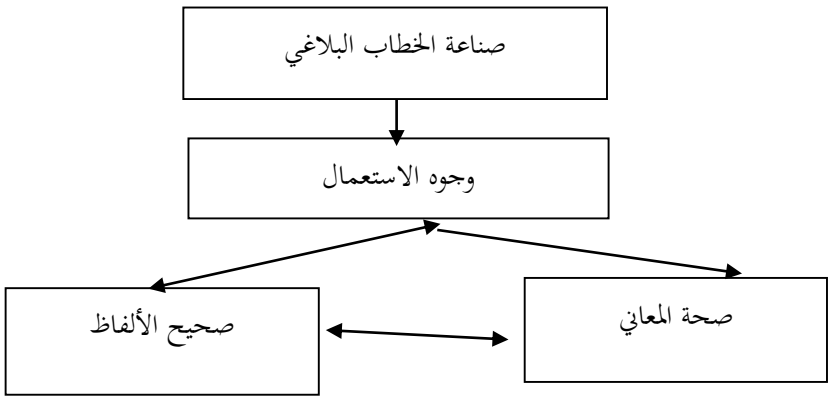

إن مركزية الخطاب البلاغي تظهر في نسق استعماله، ومؤشرات بنائه السياقية فوجوه الاستعمال تعني مقتضى الحال أي الأسيقة المرتبطة بإنتاج الخطاب فهو الذي يتحكم في اختيار المعاني الموائمة له وما يناسب تلك المعاني من تراكيب لغوية . انطلاقا من الخطاب عموما باعتباره العامل المشترك بين البحث البلاغي والبحث التداولي، ثم بلاغة الخطاب أي الخطاب الذي يتسم بالبلاغة يمكن أن نسميه "البلاغة الفن" وهو الخطاب البلاغي الموصوف الذي يتجلى في الخطاب القرآني ثم أنواع الخطابات الأخرى سواء كانت نثرا أو شعرا، ثم تداولية الخطاب أي دراسة العلاقة بين الخطاب ومستخدميه، وصولا إلى تداولية البلاغة

وهنا نقصد البلاغة العلم : وهي الخطاب البلاغي الواصف أي الخطاب المعرفي الذي يضم المفاهيم والمصطلحات النظرية والإجرائية لعلم البلاغة أما ما نقصد بأنه تداولية البلاغة أي تأصيل المباحث التداولية في علم البلاغة العربي. يعنى أن لتأصيل المفاهيم التداولية في علم البلاغة يجب أن يُمر بمنطلقات الدرس البلاغي أي بدءا بموضوع البلاغة العربية وهو الكلام الذي يتسم بالبلاغة والفصاحة ثم وصف وتفسير تداولية الخطاب وفي الأخير يتم تأصيل المفاهيم التداولية من خلال المفاهيم البلاغية لأن القراءة المباشرة في علم البلاغة من شأنه أن يولد قراءات إسقاطية سطحية لدى يجب النظر والبحث في المقومات الأولية لكل علم والأسس الإبستيمولوجية فطبيعة العلم تراكمية وهكذا فتأصيل الدرس التداولي في البلاغة العربية يجب أن يمر عن طريق الدراسة التأسيسية لتحديد المنطلقات والموضوع والهدف والمنهج لكي لا نقع في تعسف القراءات وسطحية الإسقاطات.

ويمكننا توضيح هذا بالمخطط التالي:

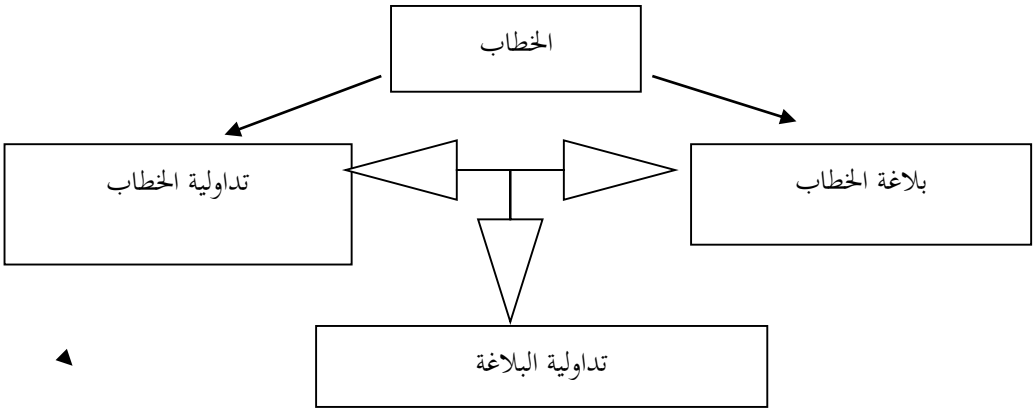

6 . خاتمة

لقد أسفرت دراستنا في ما تم عرضه على نتائج جاءت في طياته يمكن أن نلخص أهمها في الآتي:

- إن الدرس البلاغي العربي زاخر بالأبعاد التداولية، لكنه ارتبط ببعض التصورات الخاطئة التي حصرته في الجانب الجمالي الفني، وفي الحقيقة أن البلاغة العربية في جوهرها نظرية شاملة في التواصل استمدت هذا التوجه إلى الكلية والشمولية من خلال الخطاب القرآني ودراسة الإعجاز فيه؛ لكنها تتطلب إعادة البعث والإحياء.

- من أهم الأبعاد التداولية في البلاغة العربية التي ارتبطت بموضوع هذا الدرس وهو الكلام البلاغي: القصدية، المحاجة والتأثير، مقتضى الحال الذي أنتج العبارة المشهورة لكل مقام مقال .و يقوم حد الخطاب البلاغي على أربعة أركان هي: المرسل؛ المتلقي؛ القصد؛ الإفهام وتربط بينها علاقات تقابل وتواز؛ في شكل علاقات خطابية وعلاقات استدلالية .
- من أهم غايات الخطاب البلاغي الإفادة أولا تتعلق بالتلفظ والأداء اللغوي ثم الإفهام ثانيا يرتبط بالمنجز والمتحقق من العبارات اللغوية وصولا إلى التأثير والاقتناع كثمرة للخطاب ترتبط بالمتلقي .
- إن تأصيل التداولية في الدرس البلاغي لا يجب أن يكون إسقاطا مباشرا على الخطاب البلاغي الواصف أي المفاهيم البلاغية المباشرة، بل يجب أن يراعى كذلك طبيعة الخطاب الموصوف الذي هو موضوع البحث البلاغي.
- تأصيل النظرية التداولية يجب أن يخضع لشروط نظرية رصينة، تقوم على استجلاء منطلقاتها وتصوراتها ومرجعياتها، وصفا وتفسيرا، بالطريقة نفسها مع النظرية الوجهة تجنبا للإسقاطات المباشرة و أحكام التعسفية.

---

[1] الخطابي، (د.ت) ، بيان إعجاز القرآن: تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر، ط3 ، ص 27.

[2] ابن فارس، أحمد بن فارس (1989) مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج2، ص198، 199.

[3] الزبيدي، المرتضي ،(1965) ، تاج العروس من جواهر القاموس ،دار الهداية ، الكويت ، ج 2، ص 370.

[4] ابن منظور، محمد بن مكرم(د.ت) لسان العرب ، دار الصادر، بيروت، ط1،ج1، ص 360.

[5] الزبيدي: مرجع سابق ج1، ص91.

[6] نفسه، ج 1 ، ص70.

[7] مجاهد ، أبو الحجاج بن جبر،(1989) تفسير مجاهد، تحقيق محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الاسلامي الحديث، مصر ، ط 1، ص 696.

[8] الزمخشري، جار الله أبو القاسم بن عمر(1409ه) الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل دار الكتاب العربي، بيروت ، د.ط، ج 4 ص83

[9] مرجع نفسه، ج4 ص 80.

[10]عياشي، منذر، (1990) مقالات في الأسلوبية ، منشورات اتحاد العرب، دمشق ط1، نقلا عن بن يحي، ناعوس،(2013) تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في السياسات نص إشراف محمد مليانى ،جامعة وهران ، الجزائر، ص 28،29 .

[11] فياض ، حبيب(2008) مقاربات في فهم الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت،لبنان، ط1، ص178.

[12] المناوي، محمد عبد الرؤوف، (د.ت) التوقيف 3على مهمات التعاريف، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، ص 316.

[13] الآمدي، سيد الدين بن محمد،(د.ت) الإحكام في أصول الأحكام، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان ج 1، ص 95.

[14] السبكي، علي بن عبد الكافي(2004) الإبهاج في شرح المنهاج، تح: أحمد جمال الزمزمي، دار البحوث الإسلامية و إحياء التراث ،ط1 ، ج 2، ص 120.

[15] المرجع نفسه، ج 2، ص 118.

[16] ابن خلدون(2001) المقدمة، تح: خليل شحاذة، دار الفكر، لبنان، ج 1، ص 799.

[17] ينظر: فضل، صلاح (1992) بلاغة الخطاب وعلم النص، علم المعرفة، الكويت، ص7.

[18] المرجع نفسه، ص7.

[19] مرتاض، عبد الجليل(2016) الروافد اللسانية لتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، د ط، ص9.

[20] بوقرة، نعمان عبد الحميد (2017) أضواء على تحليل الخطاب في الفكر اللساني الحديث مجلة العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، العدد29. ص57.

[21] يقطين ، سعيد، (1997) تحليل الخطاب الروائي (الزمن ،السرد ،التبئير) المركز الثقافي العربي بيروت، ط3، ص19 .

[22] طه، عبد الرحمن (1998) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، ص215.

[23] المرجع نفسه، ص226 .

[24] ينظر: الزرقاني، محمد عبد العظيم، (د.ت) مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، مصر، ط 3 ،ج1، ص 215.

[25] ابن البناء المراكشي(د.ت)، الروض المريع في صناعة البديع، تح: محمد عبد الوارث، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ص15.

[26] البحراني، علي بن ميثم (1433ه)، أصول البلاغة ، مؤسسة الإمام الصادق، إيران، ط1، ص54.

[27] بن وهب، الحسن (1969) البرهان في وجوه البيان، مطبعة الرسالة، القاهرة، ص 129.

[28] حفني ناصف وآخرون(2012) دروس البلاغة، دار ابن حزم، بيروت ، ط1، ص 20.

[29] كلاتمة، خديجة (جانفي 2018) منطق الاستدلال في الخطاب البلاغي ، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، ع22، ص 153.

[30] محمد الخضر، حسين(2010)، الخيال في الشعر العربي، دار النوادر ،سوريا، ط1، ص162.

[31] هنريش بليت :البلاغة والأسلوبية ، تح: محمد العمري، إفريقيا الشرق ، المغرب ، ص24.

[32] فضل صلاح(1992)، بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص20.

[33] نفسه ، ص 20.

[34] نفسه، ص20

[35] جوليان لونجي و جورج إليا سرفاتي، (2020)، قاموس التداولية ، تر: لطفي السيد منصور، دار الرافدين ، لبنان ، ط1 ، ص 209.

[36] فضل، صلاح، مرجع سابق ، ص 21.

[37] بوقرة ، نعمان(2012)، لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ط1، ص76.

[38] العسكري، أبو هلال (1419ه)، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت ، لبنان ، ص69.

[39] سيبويه: الكتاب،(1988) تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج1، ص25.

7. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم

- الآمدي، سيد الدين بن محمد ،(د.ت) الإحكام في أصول الأحكام، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان ج 1 .

- البحراني، علي بن ميثم (1433ه) أصول البلاغة ، مؤسسة الإمام الصادق، إيران، ط1 .

- ابن البناء المراكشي، (د.ت) الروض المريع في صناعة البديع، تح: محمد عبد الوارث، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.

- الخضر حسين، محمد(2010) الخيال في الشعر العربي، دار النوادر ،سوريا، ط1.

- الخطابي(د.ت) بيان إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر، ط3

- الزبيدي، المرتضي (1965) تاج العروس من جواهر القاموس ،دار الهداية ، الكويت، ج 2.

- الزرقاني، محمد عبد العظيم(د.ت) مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، مصر، ط 3 ،ج1.

- الزمخشري، جار الله أبو القاسم بن عمر(1407ه) الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل دار الكتاب العربي، بيروت ، دط ، ج 4 .

- السبكي، علي بن عبد الكافي(2004) الإبهاج في شرح المنهاج، تح: أحمد جمال الزمزمي، دار البحوث الإسلامية و إحياء التراث ،ط1، ج 2، .

- العسكري، أبو هلال(1419ه) كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية بيروت، لبنان.

- المناوي، محمد (د.ت)عبد الرؤوف التوقيف على مهمات التعاريف، دار الفكر المعاصر، بيروت ط1.

- بوقرة، نعمان(2012)، لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1.

- جوليان لونجي وجورج إليا سرفاتي،(2020) قاموس التداولية، تر: لطفي السيد منصور، دار الرافدين، لبنان، ط1.

- حفني ناصف وآخرون (2012)، دروس البلاغة، دار ابن حزم ، بيروت، لبنان ، ط1،

- ابن خلدون(2001) المقدمة، تح: خليل شحاذة، دار الفكر، لبنان، ج 1

- سيبويه: الكتاب،(1988) تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ،ط3، ج1.

- طه، عبد الرحمن (1998) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1 .

- عياشي ، منذر(1990) مقالات في الأسلوبية ، منشورات اتحاد العرب، دمشق ط1، نقلا عن ك بن يحي ناعوس، تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في السياسات نص إشراف محمد ملياني، جامعة وهران،2013 .

- فارس، أحمد بن فارس (1989) مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج2.

- فضل ، صلاح(1992) بلاغة الخطاب وعلم النص ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت .

- فياض، حبيب(2008) مقاربات في فهم الدين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1.

- مجاهد، أبو الحجاج بن جبر(1989) تفسير مجاهد، تحقيق محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الاسلامي الحديث، مصر، ط 1.

- مرتاض ، عبد الجليل(2016)، الروافد اللسانية لتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، د ط .

- ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت) لسان العرب، دار الصادر، بيروت، ط1،ج

- هنريش بليت،(د.ت) البلاغة والأسلوبية، تح: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب.

-ابن وهب، الحسن (1969)، البرهان في وجوه البيان، مطبعة الرسالة ، القاهرة، مصر.

- يقطين، سعيد، (1997)، تحليل الخطاب الروائي (الزمن ،السرد ،التبئير) المركز الثقافي العربي بيروت، ط3 .

*** الدوريات:**

- بوقرة ، نعمان عبد الحميد(صيف 2017) أضواء على تحليل الخطاب في الفكر اللساني الحديث مجلة العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، العدد29.

- كلاتمة، خديجة(جانفي 2018) منطق الاستدلال في الخطاب البلاغي ، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، ع22.